قراءة في رحاب فكر الإمام علي (عليه السلام)

الناس صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق

A reading in the Thought of Imam Ali (peace be upon him), "People are of two types, either your brother in religion or your equal in creation"

أ.د. عبد علي سفيح

فرنسا– وزارة التربية والتعليم العالي الفرنسية

Dr. Abdul Ali Sefeih

French Ministry of Education and Higher Education / France

ملخص البحث

وضع لنا الإمام علي (عليه السلام) في نهجه نظريات متكاملة، تتناول سبل التواصل والتوافق بين البشر، وقد أجاد في كل وصاياه لولاته في الأمصار المختلفة، ومنها كتابه لمالك الأشتر لما ولاه على مصر وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن.

كان محور هذا النص قيمتين أساسيتين جعل الإمام (عليه السلام) منهما مظلة التعايش والتراحم بين الناس جميعا، وهما الأخوة في الدين، وهي الرابطة التي تستوعب التعددية والثقافات المختلفة في عقد يسمى الأخوة، والقيمة الثانية هي النظير في الخلق، وهي الاعتراف بالآخر على قدم المساواة في الإنسانية وليس العضوية في كيان أو مجموعة، بل بالانتماء المشترك للجنس البشري.

ويؤكد الإمام (عليه السلام) أن الدولة ليست مكونة من مجتمعات متجانسة ومتشابهة، بل من كيانات متنوعة وعلى الجميع أن ينظروا إلى بعضهم البعض على أنهم أخوة حقيقيون، ومستعدون دائما لمنح بعضهم البعض المحبة والإيثار والسلام، وقيمة الأخوّة تضمن الحد الأدنى من الحماية للفئات الأكثر ضعفا من البشر، من الأيتام والأرامل، والمرضى، وكبار السن.

الكلمات المفتاحية: الأخوة، صنفان، الإمام علي، النظير، الدين، الخلق

Abstract

Imam Ali put to us integrated theories in his approach, dealing with ways of communication and harmony between people, and he excelled in all of his wills for his deputies in various countries, including his book for Malik al-Ashtar when he appointed him ruler of Egypt, which is the longest and most comprehensive will he wrote.

This text focused on two basic values that the Imam (may God bless him and grant him peace) made the umbrella of coexistence and mercy among all people, and they are brotherhood in religion, a bond that accommodates pluralism and different cultures in a contract called brotherhood, and the second value is the counterpart in creation, which is the recognition of the other on an equal footing. In humanity, belonging is not to an entity or group, but to the common belonging to the human race.

The Imam (may God's prayers and peace be upon him) emphasized that the state is not made up of homogeneous and similar societies, but rather of diverse entities, and everyone must look at each other as true brothers, always ready to give each other love and peace, and the value of brotherhood ensures a minimum of Protection for the most vulnerable groups of people, orphans, widows, the sick and the elderly.

المقدمة

هذه الدراسة لم تطرح السيرة التاريخية للإمام (عليه السلام)، ولا أعماله وزهده، وحياته ومماته. أي لم تكن دراسة منفصلة عن شخصية الإمام (عليه السلام)، بل الهدف منها هو الإجابة على السؤال الذي شغل الناس منذ فترة طويلة وهو: كيف أصبح بن أبي طالب عليا وأصبح سرًّا إلهيا؟.

للإجابة على هذا السؤال يتطلب الدخول في أعماق الإمام (عليه السلام) والغوص في قعر محيط متلاطم الأمواج، وليس من السهل الغوص فيه. يجب معرفة كيف كان يفكر الإمام (عليه السلام)، وما هي فلسفته ورؤيته للإنسان والحياة.

عنوان هذه الدراسة هو نص مقتطف من أطول العهود وأهمها للإمام علي (عليه السلام) إلى واليه على مصر مالك بن الحارث الأشتر، الذي يعد وثيقة تاريخية بليغة وشاملة المعاني والدلالات والمضامين لإدارة شؤون الدولة ورعاية مصالح الناس التي تعكس فلسفة الإمام علي (عليه السلام) ورؤيته للإنسان وللحياة. أراد الإمام علي (عليه السلام) أن يؤسس منهجًا خاصًا مبنيًّا على منظومة أساسية للقيم ومنها الحرية والعدالة والإخاء، التي وضعها دائما في خط واحد. عدَّ الإمام هذه القيم القاعدة الرئيسة في بناء أي مجتمع إنساني، وهي الجواب على السؤال الذي وضعته البشرية من يوم ولادتها وليومنا هذا وهو: ما هي الحياة الكريمة والسعيدة لإنسان غير خالد؟.

هذه المقولة، إمَّا أَخٌ لكَ في الدِّينِ أو نظيرٌ لكَ في الخَلقِ، من روائع كلمات الإمام (عليه السلام) التي تتجلى فيها النزعة الإنسانية الخلاقة، وتبقى فيها روح التواصل

الإنساني الأخلاقي على مستوى الناس كافة، وتجعل الناس ينظرون لأنفسهم عبر جذعين مشتركين لا ثالث لهما، وهما رابطة الاشتراك في الدين، ورابطة الاشتراك في الخلق. والحكمة البالغة في هذه المقولة، هي أن رابطة الاشتراك في الدين، لا تلغي رابطة الاشتراك في الخلق، بل هي ثنائية لا فصال بينهما، وإنما جاءت لتفتح وعي الإنسان على هذا الرابط الإنساني، وتجعل منه منظورًا إلى رؤية العالم. هذه الرؤية هي بخلاف تلك الأفكار والتصورات التي أخذت تنبعث اليوم، وتصور أن الدين يحرض على القطيعة والانغلاق عن الآخر في العقيدة والإيمان.

وهذان الجذعان المشتركان أحدهما هو المحتوى القريب أو خاص وهو الدين، والآخر هو الحاوي، العام، شامل وبعيد هو إنسانية الإنسان مهما اختلف لونه أو جنسه، أو عقيدته، أو طبقته عبد أو حر. هذه الرؤية تولد خطاب لا ينزع نحو الكراهية والنزاع والصدام مع الآخر المختلف على الإطلاق، بل يكون داعيا لوحدة الدين والإنسانية. الكل في الجزء والجزء في الكل. وهذا يجسد قوله «وَتُحْسَبُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيْرٌ وَفِيْكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ»[1].

نجد جذور الأُخوَّة في الأديان الرئيسة الخمس وهي، اليهودية، والمسيحية، والإسلام، والهندوسية والبوذية. هذه الأديان تدافع عن هذه القيمة في نصوصها المقدسة[2]. لقد طرحوا جميعًا أنموذجًا أخلاقيا، يمكن أن يطلق عليه بالقاعدة الذهبية التي جسدها الإمام علي (عليه السلام) من وصيته إلى ولده الحسن (عليه السلام) في محبة الآخرين والنهي عن الظلم: «يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيرِكَ.

فَأَحِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا. وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ. وَأَحسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحسَنَ إِلَيْكَ..»[٣]. كذلك الحديث الشريف «لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٤]، كذلك القرآن الكريم الذي عبر عن الأخوة داخل الأمة وخارجها عبر تسليط الضوء على الأصل المشترك لجميع البشر بأنهم أبناء آدم وحواء، وينتمون إلى عائلة بشرية كبيرة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

وتؤكد الأناجيل الثلاثة الأولى على عالمية الأخوَّة عن طريق رسالة بطرس في العهد الجديد ويوحنا الذي ينظر إلى الأخوَّة على أنها إنكار حقيقي للذات والأنانية الفردية وهي التي تسمح بالتواصل مع الله.

هذه المقولة لا يمكن فصلها عن واقع المجتمع في مصر الذي كان يستند على نظام الرق الذي حاول الإسلام معالجته بقوله تعالى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ (البلد: ١١)، ولا يمكن فصلها عمَّا سبقها من النص وهو عهد طويل وجهه الإمام (عليه السلام) إلى مالك الأشتر عامله على مصر، وكان محور هذا العهد يستند على مفهوم الحوار بين الراعي والرعية، وبين الحاكم والمحكوم وبتعزيز قيمة الحرية والمساواة بين الناس. هذه الرؤية هي رؤية قرآنية، لأن الإسلام يعطي للآخر مفهوم الكل. ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢). أي وحدة الخالق والمخلوق.

يَعدُّ الفلاسفة الأخوة قيمة دينية وأول من طرحها ثوار الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، كمبدأ عام

للعقل السياسي، الذي باسمه نشأت الحقوق الاجتماعية الأولى. اذا كان التضامن يمثل الحماية الاجتماعية، فإنَّ الأخوة تمنح قيمة الحرية بعدا إنسانيا.

وعدَّ الإمام علي (عليه السلام) الحرية أقدس القيم، وهي الفيصل الذي يميّز عالم الإنسان من عالم الحيوان، وهي منبع للروافد والسواقي للقيم الأخرى. أما العدالة والمساواة فإنها مفتاح لحقوق الأفراد، تجسد قيمة الحرية وتقويها؛ لأن الناس يولدون أحرارًا وليس لأحد حق في أن يسلبهم هذا الحق. والعدالة تتطلب محاربة الظلم والفساد. أما نظرة الإمام (عليه السلام) لقيمة الأخوة ينطلق من أنّها الرابط الذي يربط القيمتين، الحرية والمساواة من دون الأخوة ونظير في الخلق، لا يمكن تفعيل القيمتين السابقتين.

الهدف من هذه الدراسة:

١. قراءة الأنماط الفكرية للإمام علي (عليه السلام) التي تحدد رؤيته وفلسفته للإنسان وللحياة ولنظام الحكم.

٢. قراءة فعالة تؤثر في تصحيح العلاقة والصورة بين الذات والآخر. قراءة تبني جسور التعارف والتواصل مع الآخر.

٣. الإجابة عن سؤال وضعته البشرية منذ وجودها وليومنا هذا وهو، ما هي الحياة الكريمة لإنسان غير خالد؟.

منهج البحث: وثيقة مهمة كالعهد إلى والي مصر، تعد من الوثائق التاريخية السياسية والاجتماعية المهمة التي تؤسس لمقومات وسمات إجمالية لعدة قيم مهمة منها الحرية والعدالة والمساواة والإخاء.

عادة عند دراسة أي حدث تاريخي أو وثيقة تاريخية، تفرض

على الباحث دراسة لوازمها، وهي الأبعاد الثلاثة: الزمان، المكان، والشخوص. هذه الأبعاد تولد أسئلة مهمة تساعدنا على تفسير هذه النصوص ومنها: من قالها، ولمن قالها، ولماذا قالها، والهدف من قولها؟ هذا فضلا عن الظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بتلك الوثيقة. نحن أمام إشكالية كبيرة ومعقدة في تفسير هذا القول وتحليله (أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق). هل هو نص ديني، أي كلام إمام وقائد روحي للأمة الإسلامية، أم هو نص فلسفي، وكلام علي بن أبي طالب (عليه السلام) كلام خليفة وقائد سياسي للأمة الإسلامية؟ لأن لكل منهما منهج يختلف عن الآخر. فإذا عددناه نصًّا دينيًّا، يشترط التفسير في معرفة عقيدة صاحب النص. والبنية الفكرية لهذا النص هو القرآن الكريم. فمعرفة علاقة النص بالقرآن الكريم ضرورية، لأن القرآن يعدُّ مستودعًا لمنظومة قيم تسهل علينا تفسير المعنى لهذا النص. استعملنا في هذا البحث مناهج متعددة خاصة في قراءة النصوص الدينية ومنها منهج الفيلولوجي(علم اللغة المقارن) وهو العودة إلى جذر كلمة أخ ونظير، ومنهج الهرمنيوطيقا (المنهج التأويلي) ومنه حصلنا على ثلاث قراءات مختلفة، ومنهج التفكيك، وهو حديث يعود للفيلسوف الفرنسي دريدا، ومنه فككنا النص وأعدنا صياغته ثانية ببروز المخفي ما وراء النص.

أما إذا عددناه نصًّا فلسفيًّا، فالتفسير لا يشترط في الشرح معرفة عقيدة صاحب النص؛ لأنَّ الشرح يتم عبر الفهم الدقيق للنص وتحديد المفاهيم. على سبيل المثال الفيلسوف سقراط، لن نتكلم عن معتقده الديني وعقيدته الروحية. كذلك

ضرورة السعي إلى فهم شخصية الإمام علي (عليه السلام) الذي استعمل هذا الكلام كوسيلة اتصال لنقل أفكاره. واللغة والبلاغة التي تميز بهما الإمام (عليه السلام) كانت أداة عامة بينما الفكر والخيال هو نتاج شخصي يعود للإمام. لذلك هناك مواجهة دائمة بين المعنى العام للنص أي اللغة وبين المعنى الخاص الذي يقصده الإمام. استعملنا مناهج عدة في آن واحد ومنها: المنهج العقلي لـ(ديكارت وكانت)، والمنهج المقارن، وخاصة المنهج الإيماني للفيلسوف الدنماركي كيركيجارد[٥]؛ لأن باعتقادنا المنهجية الأكثر فاعلية هي أن نعدَّ النص في الوقت نفسه نصا دينيًّا وفلسفيًّا يكمل أحدهما الآخر، بينما ابتعدنا قليلا عن المنهج المثالي لـ(أفلاطون وهيجل).

طريقة البحث: الطريقة تعتمد على تحليل النص بعد قراءته بشكل جيد، ومن ثم فهمه عبر الانتقال من المستوى اللغوي مستوى الأفكار والمعاني للوصول إلى الملكة الفكرية لقول الإمام (عليه السلام) ويتم بالخطوات التالية: وضع القراءة الأولى الأساسية للنص من دون تأويلها ومن دون إسقاط معانٍ لا يتحملها مفهوم النَّصِّ الاصطلاحي. ثم تليه قراءة ثانية أعمق من الأولى، وختمنا بقراءة ثالثة بفكرة أبعد من القراءة الثانية.

لفك أسرار هذا النص، علينا تفكيكه وتركيبه حسب منهجية علمية حديثة وضعها الفيلسوف الفرنسي دريدا[٦] في فهم معنى ما وراء النص وإدراك. بعد تفكيك النص نحصل على الكلمات المفتاحية الأساسية وهي: الناس -أخ -الدين -نظير -الخلق.

الصعوبات والمعوقات: كتابة بحث أو دراسة عن الإمام علي

(عليه السلام) وهو مشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها على حد قول الشريف الرضي في مقدمة نهج البلاغة لابن أبي الحديد، يجب أن تكون الكلمات تليق بهذا الصرح من ناحية سياق الجمل وفن التعبير، إضافة إلى صعوبة الغوص في أعماق هذا البحر من العلوم والمعارف.

ما أكتبه هو مقتطف من أطروحة الدكتوراه أعددتها في جامعة بوردو في فرنسا عام ٢٠٠٠ تحت عنوان: علي بن أبي طالب إمام وخليفة. يغلب على كتابة الكتب والمقالات والأبحاث في العالم العربي بصورة عامة، والعراق بصورة خاصة، جمالية الوصف والعمومية وهندسة اللغة مما يحول النص أو المقال إلى نص أدبي رفيع. هذا السياق في بناء الجمل يجعل الفكرة وعمق محتواها شيئا ثانويا، على عكس الأوربيين، يهتمون بالمحتوى وليس بالحاوي. هذا من جانب. ومن جانب آخر، كتب العديد من الأدباء والشعراء والمؤرخين والكتاب والباحثين في الإمام علي (عليه السلام) ومنهم طه حسين، عباس محمود العقاد، عبد الرحمن الشرقاوي، جورج جرداق، ومحمد جواد مغنية، كتبوا عن سيرة الإمام علي (عليه السلام) وشخصيته وسياسته، كل من زاوية أو مدخل. جلهم كتبوا عن الآثار التي تركها الإمام خلفه، وعن هذه الآثار استدلوا على صاحب الأثر. لم يكتب هؤلاء بصورة أعمق عن صاحب الأثر. ما هو سر إبداعه، وتميزه عن الآخرين؟. كيف أصبح بن أبي طالب عليا وأصبح سرًّا إلهيًّا؟. فلسفته للإنسان وللحياة؟ رؤيته لعقيدة الخلاص؟. للوصول إلى نتائج قريبة من الحقيقة ليس بالأمر السهل لتحليل شخصية عظيمة مثل

شخصية الإمام علي (عليه السلام).

تعريف الأخوَّة: الأخوَّة مفهوم معقد. هل هو مبدأ أم قيمة؟. هل هو مسألة قانون أم حالة ذهنية؟.

المعنى اللغوي: معجم المعاني الجامع يعرف الإخوة (اسم) وهي جمع أخ ومصدرها (أخًا). وهي من شارك غيره في الولادة من أبويه (أشقاء)، أو إخوة في الرضاعة.

اما تعريفها في اللغة اللاتينية وهي فراتر، أي شقيق تربطه بالآخر علاقة الدم.

المعنى الاصطلاحي: هي الرابطة التي تربط الفرد أو مجموعة بشرية مع أولئك الذين يشتركون معه أو معهم بالقواسم المشتركة نفسها، مثل أخوة في الدين، أو في المذهب، أو في الجهاد، أو في المواطنة، أو في حزب.

الأخوَّة جعلها الإمام علي (عليه السلام) القيمة الملموسة التي تجسد القيمتين الأساسيتين هي الحرية والمساواة؛ لأنها تضمن المعاملة بالمثل وهي التي توحد القيمتين السابقتين الحرية والمساواة. وهذه القيمة هي الضامنة للعيش المشترك.

هناك قراءات عدة في تفسير هذا النص، كان مفهوم النص عند علماء المسلمين القدامى، لاسيما الأصوليون، وأشهرها ما ذكرها الشافعي (ت ٢٠٤هـ) بأنه: هو المستغني بالتنزيل والتأويل. هو الكلام الذي لا يحتمل التأويل والتفسير لأن ظاهره يغني عن كل ذلك[٧].

أخ لك في الدين: الأخوة رابط دم أو خارج عن رابط الدم، يستوعب التعددية ويجمع الثقافات، في عقد يسمى الأخوة. فهي درجة إذا نالها الإنسان ربح. ترسخ الأخوة في الله، وفي الوطن، في العقيدة، في الدم، صفاء النية وسلامة القلب، وتنتهي بأعلى درجات العطاء والإيثار.

في فرنسا الأخوة رمز وشعار للجمهورية الفرنسية مع الحرية والمساواة. وهذه القيمة مكتوبة بحروف كبيرة على أقواس قاعات المدينة والمدارس. تعبر الأخوة سياسة اليد المفتوحة.

الأخوة هو الجذع المشترك القريب، أي البحث عن المشتركات العامة في الدين الواحد، وبين الأديان، والكشف عن مواطن اللقاء، وتغليب عناصر الاتفاق ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ٢٢)، وتجنب الخوض في المسائل الخلافية ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)، وخاصة المسائل اللاهوتية والكلامية التي تتفرد بها الديانات وتتباين وتختلف ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، في أجواء تتسم عادة بالنقاشات الحرة والصريحة.

هذا النمط من الحوارات يستند إلى أمرين:

الأول: له علاقة بالدين بصورة عامة. لأن الدين يمثل إطارًا جامعًا لهم، ويتخذون منه وصفا وتوصيفا لهم، إذ يطلقون على أنفسهم أهل الأديان أو أتباع الدين بقوله «ولا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الأُمَّةِ واجْتَمَعَتْ بِهَا الأُلْفَةُ وصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ. ولا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ»[٨].

الثاني: له علاقة بالمنهج، وهو الذي يتعلق بالشأن العام، على أساس أن المناهج هي اجتهادات خاضعة للزمان والمكان ومبنية على منظومة قيمية تستند عليها حركة الفرد والمجتمع.

تفسير اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق

١. تفسير النص على أساس أنَّه نصٌّ ديني.

صعوبات تفسير النص الديني: بالرغم من أن تفسير النصوص الدينية يحتل موضوع الصدارة، والاهتمام منذ بداية النهضة الفكرية في الفكر الإسلامي وإن كانت هناك قراءات معاصرة للنصوص الدينية إلا أنها بقت بعيدة عن الحداثة.

الفكر الحداثي والبناء المعرفي في المجتمعات الغربية قائم منذ أكثر من ثلاثة قرون. هناك إنتاج يومي وتراكم علمي مستمر. وقد استعان المهتمون في هذا الحقل بتقنيات حديثة وآليات متطورة، مثل علم الاجتماع، والأنثروبولوجي (علم الإنسان)، والفيلولوجي (علم منهج التاريخ النقدي)، وأخيرا الجينيالوجي (علم المنشأ او التكوين). إضافة إلى منهج الحفر الفكري لميشيل فوكو، ومنهج التفكيك لدريدا، وكان الهدف الإساس لهذه المناهج هو فك هيمنة التاريخ على الفكر والعقل البشريَنِ.

إذا كان هذا النص يعبر عن ظاهرة تاريخية، بوصفها مجموعة من الوقائع التي حصلت في زمان ومكان معينين مع شخوص، فإنَّ استحضار هذا الماضي ليس عملية سهلة؛ لأن ذلك يقتضي توفر نهج خاص يعيد بناء الظاهرة التاريخية انطلاقا من الوثائق والمصادر التاريخية، ولكن مع ذلك يبقى بناء معرفة دقيقة بالماضي يواجه عائق المسافة الزمنية التي تفصل الماضي عن الحاضر، ولذلك تبقى معرفة أي ظاهرة هي نسبية بحد ذاتها.

على سبيل المثال: في ٥ مارس من عام ٢٠٢١ تمت زيارة البابا فرنسيس للعراق، وشاهدنا لافتات عليها صورة البابا والسيستاني

ومكتوب عليها: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق. كذلك لاحظنا عندما استقبل رئيس جمهورية العراق برهم صالح البابا، قال في خطابه واستشهد بقول الإمام علي، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق. السؤال هو: ماذا كان يقصد العراقيون وبرهم صالح من أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق؟ هل يقصدوا بأن البابا ليس أخ السيستاني في الدين بل في الخلق، أم هناك تفسير آخر؟ المفهوم العام عند العراقيين وحتى في تفسيرات نهج البلاغة، أن المسيحي هو ليس أخ المسلم في الدين، بل نظير له في الخلق. وهل كان هذا المفهوم الاصطلاحي للنص عند الإمام علي؟ الجواب على هذا السؤال يتطلب منا معرفة مفهوم الإمام للدين وخاصة إلى الإسلام.

بعد تفكيك قول الإمام علي (عليه السلام) وشرحه وتحليله وتركيبه، حصلنا على ثلاث قراءات في الوقت نفسه متقاربة ومتباعدة. ولمعرفة أية قراءة هي الأقرب إلى كلام الإمام علي (عليه السلام) وفكره وقصده، علينا فحص كل قراءة بدقة على أساس قربها وبعدها من فلسفة الإمام علي (عليه السلام) ورؤيته للإنسان والحياة، وكذلك قربها وبعدها من القرآن الكريم. لا شك أن كلام الإمام علي (عليه السلام) هو نظرية عامة وقيمة عامة لا يحدها الزمان ولا المكان ولا الشخوص، بل إنها صدرت من مكان خاص وهو مصر، ومن زمان وشخوص خاصين. الخاص لا يلغي العام، مثلما حدث على سبيل المثال في أثينا ولدت الفلسفة وأصبحت مفهوم عالمي، وكذلك القرآن نزل وولد في جزيرة العرب إلا أنَّ خطابه عابر لحدود المكان والزمان والأفراد.

القراءة الأولى: تعني معنى أخ لك

في الديـن، أي في الديـن الإسـلامي الـذي يشـهد الشـهادتين، (أشـهد أن لا إلـه الا الله وأن محمـدا رسـول الله). وأما بقية الخلق فهم نظير في الخلق. ومـا زيـارة قداسـة بابـا الفاتيـكان فرنسـيس للعـراق في ٥ آذار ٢٠٢١ والـذي رُحـب بـه بحفـاوة كبيرة، هـو خير دليل لهذا المعنى. جلب انتباهي بعـض الملصقـات فيهـا صـور البابـا والسـيد السيسـتاني ومكتـوب تحتهـا: إمـا أخ لـك في الديـن أو نظـير لـك في الخلـق. هـذا يدعـم هـذه القـراءة، أي المعنـى بـأن البابـا هـو نظـير في الخلـق. وهـذه القـراءة لا تحتـاج إلى الإثبـات.

القـراءة الثانيـة: معنـى أخ لـك في الديـن، لا تشـمل فقـط لمـن يقـول الشـهادتين، بـل تشـمل اليهود والمسـيح والصابئة، أي كل من يعتقد بوحدانية الله، أي أخ لـك في ديـن التوحيـد. أمَّـا مـن هـم خـارج ديـن التوحيـد فهـم نظـير لـك في الخلـق. هـذه القـراءة تحتـاج إلى الإثبـات والدليـل القاطـع. هـذه الأدلـة يجـب توفرهـا مـن القـرآن الكريـم وليسـت مـن خـارج القـرآن، لـكل ديـن كتـاب وأتبـاع يسـمون باسـم الديـن. هـل اليهوديـة والمسيحية والإسـلام المحمـدي والصابئـة ديـن واحـد هـو ديـن التوحيـد؟ إذا كان الجـواب نعـم، هـل لهـم كتـاب واحـد وليسـت كتـب؟ وإذا كان الجـواب نعـم، هـل كلهـم أتبـاع هـذا الديـن وهـذا الكتـاب؟ هـذه الأسـئلة يجـب الإجابـة عليهـا في القـراءة الثانيـة. هـذه القـراءة نحصـل عـلى دقتهـا ودرجـة صحتهـا مـن القـرآن الكريـم.

١. **وحـدة الديـن:** الإسـلام اصطـلاح لديـن الله المنـزل في الكتـاب. القـرآن الكريـم لم يطلـق عـلى اليهـود والنصـارى والصابئـة بالديـن أبـدا، بـل أطلـق القـرآن الكريـم عليهـم بالملـل. قـال تعـالى: ﴿وَاتَّبَعْـتُ مِلَّـةَ آبَائِـي إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُـوبَ﴾

(إبراهيم: ٣٨). ويعرف معجم الفروق اللغوية الملة بأنها اسم لجملة الشريعة، كذلك معجم اللغة العربية يعرفها بطائفة دينية أو مجموعة متحدة بعقيدة مشتركة تحت اسم واحد. قد يعدها القرآن الكريم شرائع لدين واحد هو الإسلام. الإسلام موجود قبل القرآن، وكذلك مادة الإسلام هم المسلمون موجودين قبل القرآن. أي إن الإسلام هو ليس إسلام أمة محمد فقط. بل هو إسلام القرآن وهو إسلام الكتاب الذي بلغه الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) بلسان قومه وهو إسلام النصارى واليهود والصابئة نفسه. قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ...قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ (آل عمران: ٨٣- ٨٥). ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسلام﴾ (آل عمران:١٩)، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسلام دِينًا...﴾ (آل عمران: ٨٥).

أما الدين فهو واحد للمسلمين وللمؤمنين وهو الإسلام. الإسلام دين البشرية منذ ولادتها، وأتباعه أيضا منذ ولادة البشرية هم مسلمون (نوح، إبراهيم، إسماعيل، يوسف، موسى، عيسى ومحمد).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (النحل: ١٢).

في القرآن ذكرت كلمة المسلمين ومسلم ومسلمة ٢٤ مرة. منه قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ... فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٧١- ٧٢).

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران:

٦٧).

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧- ١٢٨).

اما النبي يوسف، قال تعالى ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يونس: ١٠١).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤).

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ٥٢).

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الزمر: ١١- ١٢).

إذا كان كل الأنبياء صرحوا بأنهم مسلمون ومن معهم من المؤمنين بنبوتهم من النبي نوح إلى الرسول الأكرم (صلوات الله عليهم)، فدين هؤلاء هو الإسلام وإن اختلفت الشرائع، علما أن القرآن الكريم يؤكد أن أصل هذه الشرائع هو واحد بقوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣). وكذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣).

يؤكد لنا هذا التفسير بأن الدين هو الإسلام وهو دين ملة إبراهيم وموسى وعيسى ويحيى، وأن اتباعهم مسلمون وإن اختلفت شرائعهم، بل حتى الشرائع هي واحدة يؤكدها القرآن في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ....﴾ (الشورى: ١٣). إن الذي أوصى به الله جميع هؤلاء الأنبياء وصية واحدة وهي إقامة الدين وشريعته وهو دين واحد. هل هذه الملل لها كتاب واحد؟. وهل ما لديهم من كتاب بين أيديهم هو ترجمة للكتاب الأصل المحفوظ؟ أي مفصل بلغتهم المحلية؟ العبرية لليهود، والآرامية للمسيح، والعربية للعرب؟ هذا ما نريد أن نبحثه في معنى الكتاب.

٢. **وحدة الكتاب**: عدد مرات تكرار كلمة الكتاب في القرآن الكريم هي ٢٣٠ مرة، وكلها ذكرت بالمفرد، أي الكتاب وليس الكتب. بقوله تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾ (البقرة: ٢١٣).

هذا الكتاب الذي هو في اللوح المحفوظ، تفصل آياته حسب لغة الأمم. قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (ابراهيم: ٤).

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف: ١٢). وهذا الكتاب المفصل بلسان عربي هو استجابة لدعوة النبي إبراهيم (عليه السلام) حين دعى ربه ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ

فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩). وهذا الكتاب يسرناه بلسانك العربي ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ (مريم: ٩٧).

القراءة الثالثة: أخ لك في الدين لا تمر عبر وحدة الشهادتين، ولا عبر وحدة دين التوحيد، بل أخ لك لأنه يشترك معك بأنه يملك عقيدة دينية ومعتقد ديني ليس بالضرورة عقيدة توحيدية بل عقيدة وشريعة خاصة به تنظم حياته مثل الديانة البوذية والهندوسية وحتى الديانة المتعددة الآلهة مثل الفرعونية والإغريقية. أمّا نظير لك في الخلق في هذه القراءة فهو يشمل كل البشر من دون عوائق فكرية أو جغرافية أو طبقية. يشمل الحر والعبد، الأسود والأبيض، الرجل والمرأة، المؤمن والكافر، الموحد والمشرك، المؤمن والملحد؛ لإثبات هذه القراءة يراد منا أن نوسع دائرة البحث لتشمل مساحات أوسع من المساحات السابقة، وهذا يتطلب الإجابة على أسئلة عدة منها:

السؤال الأول: هل هذا القول أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق...، قاله الإمام علي (عليه السلام) عابرا عبر خطبه أو لقاءاته مع الناس، أي لم يكن مشروطا في ظرف زمني معين، أو مكان معين، أو أمة خاصة؟.

السؤال الثاني: هل هذا النص كان رسالة وجهها الإمام علي (عليه السلام) في ظرف زمني معين ولمكان معين، ولشخص معين؟ لأنها رسالة عظيمة مليئة بالقيم الإنسانية التي تحدد قواعد سياسة الولاية ومنهج المسؤولية العامة.

السؤال الثالث: هل هذا النص كان نتيجة مشروطة بفترة زمنية كثرت فيها الخلافات والاختلافات وظهرت

فيها الفتن، وحملت السيوف بوجهه، وأدخلته حروبا مع أبناء جلدته من المسلمين، ومنها معركة الجمل، وصفين، والخوارج؟. أي كلامه هذا لم يظهر في زمن الإسلام الموحد الواحد، بل ظهر في زمن الإسلام ذي المذاهب والأفكار والطوائف، ورغم ذلك، فالإمام (عليه السلام) يسميهم رغم خلافهم لمناهج أفكاره وفلسفته بإخوة ثم إخوة في الدين.

الجواب المختصر لهذه الأسئلة الثلاثة هو الآتي: هذا الكلام هو نص مقتطف من عهد طويل لوالي مصر مالك الأشتر، وفي فترة زمنية كثرت فيها الخلافات والفتن والحروب الأهلية بين المسلمين بسبب التأويل والصراع على الحكم. عهد مشروط بثلاثية الزمان (في سنة ٣٧ هـ)، والمكان (مصر)، والأشخاص هم المصريون. فالجواب يأتي من مصر. لذا يتطلب معرفة أحوال مصر بعد ١٦ سنة من الفتح الإسلامي.

يتطلب منا معرفة كيف كانت مصر قبل الفتح العربي الإسلامي وبعد ١٦ سنة من الفتح. وما هي نسبة العرب المسلمين بالنسبة للسكان.

فتح مصر كانت ضرورة حربية ملحة تكميلا لفتح بلاد الشام واخضاع مدنها الشمالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وكذلك لصد الامبراطورية الرومانية التي كانت تسيطر على مصر وشمال أفريقيا والتي تعد منطقة عسكرية واحدة، وأيضا خوفا من أن يهاجم البيزنطينيون دار الخلافة في الحجاز عن طريق البحر الأحمر[٩].

تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص عام ٢٠هـ/ ٦٤١م، وكان يعرف بالفتح العربي الإسلامي لمصر. كانت سلسلة من الحملات والمعارك التي خاضها العرب

المسلمون ضد الامبراطورية البيزطية وانتزع المسلمون على أثرها ولاية مصر الرومية من يد الروم، ثم سقطت الإسكندرية عام ٢١هـ/ ٦٤٢م. أي من الفتح إلى تولي مالك الأشتر ولاية مصر ١٦ سنة. ما هو عدد العرب المسلمين بالنسبة إلى السكان الأصليين الذين كان أكثرهم يدينون بالدين المسيحي؟. انتشر الدين المسيحي في مصر منذ عهد الامبراطور الروماني نيرون، وذلك على يد القديس مرقس. وعند تولي قسطنطين حكم الدولة الرومانية، جعل الديانة المسيحية هي الرسمية للدولة وذلك عام ٣١٣م[١٠].

قدر المؤرخ اليوناني هيرودوتس عدد المدن المصرية بـ(٣٠ ألف) بين قرية ومدينة مسكونة، في القرن السادس ق. م. بينما ديودوروس قدر عدد سكان مصر ب ٧ مليون نسمة، وفي زمن عمر بن العاص كان عدد العرب المسلمين لا يتجاوز ٣- ٤ آلاف نسمة وجلهم من الفرسان، وبعث لهم الزبير بن العوام ١٢ ألف فارس لمساندتهم[١١].

سقوط الاسكندرية هي سقوط مصر. اسست الإسكندرية في عام ٣٣٣ ق. م. وأسسها الإسكندر الكبير، فغدت من أكبر مدن حوض البحر الأبيض المتوسط ومن أشهر المراكز الثقافية واشتهرت أيضا بمدرستها الفلسفية وبمنارتها التي كانت تعد من عجائب الدنيا السبع. كانت الإسكندرية محصنة بحصن قوية، فحاصرها عمرو بن العاص أربعة أشهر. يقال أن البيزنطينيين خرجوا منها بعد اتفاق مع عمرو بن العاص[١٢].

لم يغير العرب المسلمون النظام الإداري المعمول به قبل الفتح وذلك لعدم معرفة سكان مصر اللغة العربية؛ لأن اللغات التي كانت

سائدة آنذاك هي القبطية والرومانية والاغريقية، كذلك العرب المسلمون يجهلون هذه اللغات.

نستنتج من القراءات الثلاث، أن مفهوم أخ لك في الدين هو الذي يحدد بعد مفهوم الأخوّة وقربه من نظير لك في الخلق. عندما الأخوّة في الدين تمر من الشهادتين ، فتكون بعيدة عن مساحة النظير. وعندما الأخوّة تمر من تعريف الدين كبنية فكرية وهيكلية اجتماعية تنظم حياة المجتمعات من دون المرور بالإله، هنا تكون الأخوّة في الدين قريبة جدا من النظير بالخلق أو مندمجة فيه كما في القراءة الثالثة.

من هذا الواقع التاريخي قد ينقلنا التأويل إلى طرح السؤال وهو: هل كان يقصد الإمام علي (عليه السلام) هذا الكلام أبعد من واقع مصر بل يشمل كل شمال أفريقيا مع مصر؟.

٢. تفسير النص على أساس أنَّه نصٌّ فلسفيٌّ

إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، هذا الكلام يخص علاقة الإنسان مع الآخر. أي يخص مساحة الخلافة وإدارة الحكم.

إن وجود الإنسان هو وجود الآخر، إذ لا يصح له العيش بمفرده، فلا بد له من العيش مع الآخر. وهكذا تكون قد تجاوزنا إشكالية الضرورة -أي ضرورة وجود الآخر- إلى إشكالية أخرى وهي علاقة الأنا بالغير. وإذا كان الشخص يدل على الذات بما هي ذات واعية وحرة ومسؤولة أخلاقيًّا، فإن الغير (الآخر) ذات، أو كما قال جون بول سارتر، فالآخر هو الأنا الذي ليس أنا[١٣].

النص أخ لك... يعالج قضية الآخر ويطرح بصددها جملة من الإشكاليات وهي الآتي: إذا كان لابد للأنا من الغير (الآخر)، فما العلاقة

التي تربط الأنا بالآخر؟. هل هي علاقة إيجابية أم علاقة سلبية؟ وبأي معنى تكون العلاقة مع الآخر علاقة أخوة أو علاقة نظير؟ أم هي علاقة ضد وصراع؟.

تحليل النص فلسفيًّا: يتبنى قول الإمام علي (عليه السلام) أطروحة وهي كون مفهوم الأخوّة والنظير هي أساس العلاقة مع الآخر. فقد بدأ القول بالتأكيد على أنَّ ماهية الأخوَّة والنظير وجوهرهما هي قيم أخلاقية فاضلة، وهي ترتبط بضرورة حياتية وضرورة وجود الإنسانية. الإنسان يحتاج إلى الآخر لتوفير مستلزمات الحياة وتحقيق السعادة، فهو بحاجة إلى المأكل والمشرب والمأوى. وبما أن هذا النص كان جزءًا من عهد طويل إلى واليه على مصر مؤكدًا فيه على قيمة العدالة والمساواة، إلا أنَّ الإمام علي (عليه السلام) عبر استحضاره قيمتي الأخوَّة والنظير أعطى إحساسًا بأنها أهم من العدل والمساواة، لأن من دونهما لا يتم العدل والمساواة، وحضور هاتين القيمتين تفرض ذاتيا العدالة والمساواة؛ لأنهما تجسدان المحبة، بينما العدل كقيمة لا غنى لها عن الأخوة.

مناقشة هذا النص الفلسفي:

(أخ لك في الدين) يحمل نزعة دينية وإيمانية ومساحة خاصة، أما (نظير لك في الخلق) فيحمل نزعة إنسانية ضمن مساحة عامة وشاملة. كل مؤمن هو إنسان، فهل كل إنسان هو مؤمن أم لن يشترط الإيمان لثبوت إنسانيته؟.

يعبر النص عن جدلية العلاقة وإشكاليتها بين المحتوى (الدين) والحاوي (الخلق). تارة يأخذ الدين كحاوي لمحتويات مختلفة من الثقافات والأمم واللغات والجغرافية والتقاليد، وتارة يأخذ

الديـن كمحتـوى بعـد أن يضيـق في احتـواء العـالم، فيأخـذ الخلـق كحـاوي للمحتويـات المختلفـة مـن الأديـان والشـعوب والأمـم.

المحتويـات تسـبق وجـود الحـاوي، مما تـؤدي في تكوينـه. والحـاوي يأخـذ شـكل المحتويـات عـلى عكـس نظريـة باسـكال في حالـة الأواني المسـتطرق. الكلـمات تسـبق الجملـة وهـي التـي تكـون الجملـة، كذلـك الأفـراد كمحتـوى تسـبق وجـود العائلـة كحاويـة.

الحقيقـة الدينيـة مهمـة في تاريـخ البشريـة، ومـن الصعـب القـول مـا إذا كان هنـاك شـعوب مـن دون ديـن. أي يمكـن أن يشـكل الديـن إحـدى الخصائـص الأساسـية للإنسـانية. هـل يمكـن أن تكـون إنسـانية مـن دون ديـن، أو لا يمكـن؟.

(أخ لـك في الديـن ونظـير لـك في الخلـق)، دمـج الإمـام عـلي (عليـه السـلام) الجـزء في الـكل والـكل في الجـزء وجعلهـما لا يقبـلان الانفصـال، وهـو القائـل: «إِنَّـكَ جِـرْمٌ صَغِـيرٌ فِيـكَ انْطَـوَى الْعَـالَمُ الْأَكْـبَر»[١٤].

الديـن فضيلـة إنسـانية يطـور التواصـل الاجتماعـي عـبر إنشـاء مجتمعـات دينيـة تدافـع عـن قيـم خلقيـة ترسـخ النظـام والانضبـاط والاحـترام.

إنَّ مـا يميـز الإنسـان هـو أن يبنـي نفسـه عـن طريـق الانتـماءات الاجتماعيـة الناتجـة عـن الالتصـاق بفكـره وإيمانـه بـشيء معـين. (نظـير لـك في الخلـق)، هـي أيضـا ديـن فكـرة يجتمـع النـاس حولهـا وهـي قدسـية الخلـق.

(أخ في الديـن ونظـير في الخلـق) يعـدّان بنيـة عقليـة يجتمـع النـاس حولهـا وتؤسـس هيـاكل اجتماعيـة مما تعـزز الشـعور بالانتـماء.

حـين نعيـد النَّـصَّ إلى أصلـه وهـو العهـد الطويـل إلى واليـه مالـك

الأشتر، نجد أن الإمام علي (عليه السلام) يحمل رؤية فلسفية عميقة عن الحياة والإنسان، ويدافع عن القيم التي تعزز إنسانية الإنسان ومنها الأخوة، ويعدهما السرة التي تغذي قيمتي الحرية والمساواة ومن دون هذه السرة لا تتم حياة إنسانية بل حياة مبنية على الصراع والقتال.

السؤال الذي ممكن أن نسأله وهو: أليس هذا التصور مع الغير تصور مثالي لا يمت للواقع البشري بصلة، وشهد الإمام علي (عليه السلام) في فترة حكمه صراعات دموية بين الإخوة في الدين؟ وهذا ما طرحه الفلاسفة منهم هيجل بقوله: إن العلاقة مع الغير هي علاقة صراع، وكذلك تلميذ هيجل الفيلسوف الكسندر كوجيف الذي أكد بأن العلاقة مع الغير هي علاقة صراع وتطاحن[١٥]. أما سارتر فهو الذي قال قولته الشهيرة: إنَّ الآخر هو جهنم[١٦]، وقبلهم الفيلسوف توماس هوبس بقوله: إنَّ الإنسان ذئب للآخر[١٧].

لكن الفيلسوف هيجل قال بأن علاقة الأنا مع الغير هي عملية تخادم وضرب مثال على ذلك جدلية السيد والعبد. ينتزع السيد عن طريقها اعتراف العبد له بالسيادة، وأيضا ينتزع العبد عن طرقها اعتراف السيد له بالسيادة حين يضعف السيد ويستكين إلى الراحة. وفي التصور نفسه يذهب الفيلسوف الألماني مارتن هيديغر بين نمطين من الوجود:

الأول وجود زائف أو سطحي، وهذا الوجود يتميز بالسقوط، أي تسقط الذات من مكانها لترتمي في أحضان الجماعة ويمكن أن نصف الذات في هذه الحالة بأنها تهرب من نفسها ومن حقيقتها لتعيش مع الجماعة.

واما الوجود الثاني، وهو الوجود الحقيقي الأصيل: يتم بواسطة قفزتين وجوديتين، وتتميز بعودة الذات إلى نفسها والى حقيقتها، فهو وجود قلق، وفي هذا القلق يتطلب الشجاعة؛ لتكتشف الذات حقيقة وجودها وبأن هذا الوجود هو وجود متناهي يهدده الموت[١٨].

يتبين مما ذكرناه، بأن العلاقة مع الآخر هي علاقة اتصال وانفصال. أراد الإمام علي (عليه السلام) أن يؤكد على علاقة الاتصال؛ لأنه رجل دين ودولة في الوقت نفسه، من دون إهمال علاقة الانفصال التي تميز بها عصره من حروب أهلية وانقسامات فكرية واجتماعية. إن الغير سواء كان فردا أو جماعة أو ثقافة، قريبا منا «أخ في الدين»، أو بعيدا عنا (نظير في الخلق)، هو جزء لا ينفصل عن وجودنا الجماعي الإنساني، وليست العلاقة التي تربط بين الأنا الفردي والغير هي علاقة واحدة ووحيدة، وهذا ما أكده الفيلسوف الشاعر أبو العلاء المعري بقوله:

الناس للناس من بدو ومن حاضرة
بعض لبعض وان لم يشعروا خدموا

ممكن القول إنَّ الإمام علي (عليه السلام) هو من الأوائل الذين طرحوا ثنائية الدين والإنسانية، وعبر عن الإنسانية كإطار حاوي لكل التنوعات ومنها الدين. فالدين هو إحدى محتويات هذا الحاوي وهو الخلق. وعادة المحتوى يأخذ شكل الحاوي، فالدين لن يسقط أرضًا إذا بقي في مساحة الحاوي، بينما الدين يسقط أرضا لو تهشم الحاوي. فمساحة نظير لك في الخلق هي أكبر بكثير من مساحة أخ لك في الدين.

الخلاصة:

الناس صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، هذا الكلام

سبقه الإمام علي (عليه السلام) إلى واليه على مصر مالك بن الحارث الأشتر بـ «**أشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فانهم صنفان...**».

لكي لا تختفي قيمة الأخوة تماما من المشهد السياسي لكون الإمام علي (عليه السلام) خليفة ورجلًا على رأس أكبر امبراطورية عالمية إسلامية، وشهدت هذه الامبراطورية حروب داخلية وتمزق في نسيج وحدة الأمة الإسلامية وحروب طاحنة بين الإخوة في الدين والوطن واللغة وحتى بين الإخوة في الدم، فعدَّ الإمام علي (عليه السلام) مفهوم نظير لك في الخلق هو الجذع المشترك الذي يتعلق بوجودنا البشري.

أراد الإمام علي (عليه السلام) أن يقول: لا يحق للوالي أو الحاكم انتقاص أو ظلم أو تكليف الناس فوق طلقتهم مهما كان الآخر دينه أو لونه أو طبقته الاجتماعية، بوصفهم جزءًا من الضمير الإسلامي الحي، وجزءًا من الضمير الإنساني الحي. هذا الإنسان يخرج من دائرة الأخوة وحرمتها، والنظير بالاعتداء والعدوان والمحاربة.

يضع لنا الإمام علي (عليه السلام) في نهجه نظريات متكاملة، تبين سبل التواصل بين البشر والتوافق بينهم، وقد أجاد في كل وصاياه لولاته على الأمصار المختلفة، ومنها كتابه لمالك الأشتر لما ولاه على مصر وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن.

محور هذا النص كان قيمتين أساسيتين جعل الإمام (عليه السلام) منهما مظلة للتعايش والتراحم بين الناس جميعًا، وهما: الأخوة في الدين، وهي الرابطة التي تستوعب التعددية والثقافات المختلفة في عقد يسمى الأخوة، والثانية: النظير في الخلق،

وهي الاعتراف بالآخر على قدم المساواة في الإنسانية وليس العضوية في كيان أو مجموعة، بل بالانتماء المشترك للجنس البشري.

لم يتوقف الإمام علي (عليه السلام) عن التأكيد على أن الدولة ليست مكونة من مجتمعات متجانسة ومتشابهة، بل من كيانات متنوعة وعلى الجميع أن ينظروا إلى بعضهم بعضًا على أنهم إخوة حقيقيون، ومستعدون دائما لمنح بعضهم بعضًا المحبة والإيثار والسلام، وقيمة الأخوَّة تضمن الحد الأدنى من الحماية للفئات الأكثر ضعفا من البشر، من الأيتام والأرامل، والمرضى، وكبار السن.

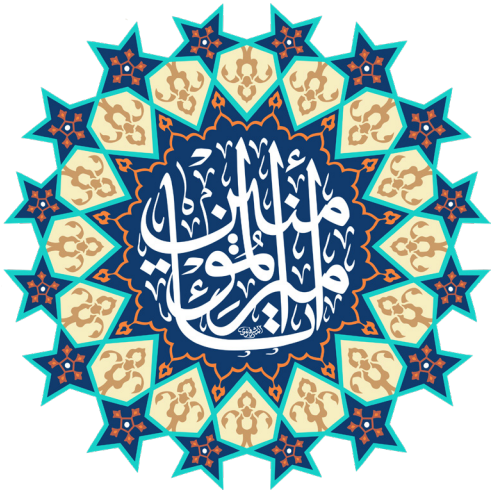

المصادر والهوامش

١. محمد خليل (٢٠١٣): ٢٠٠ حكمة للإمام علي (عليه السلام)، دار المرتضى للطباعة والنشر، بيروت ٢٠١٣.

٢. Daniel Dubuisson(1989), Dictionnaire des grands theme de l histoire des religions: Edhtion complex, Paris 1989.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١: ص ٨٤. طبعة مكتبة المرعشي النجفي- قم، إيران.

٤. سنن بن ماجة (١٩٩٨): تحقيق الدكتور بشار عواد، طبعة دار الجيل، بيروت ١٩٩٨.

٥. سورين كيركجاردل (١٨١٣- ١٨٥٥): فيلسوف دنماركي ينسب اليه الفلسفة الوجودية، صوت المعرفة ٢٠٠٠.

٦. John Sallis(1989), Deconstrucyion and philosophy The texte of Jacques Derrida: University of Chicago Press.1989

٧. أحمد مختار عمر (١٩٩٨): علم الدلالة، عالم الكتب، ط٥ القاهرة، ١٩٩٨.

٨. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٧: ص ٣٢. طبعة مكتبة المرعشي النجفي- قم، ايران.

٩. Alfred Butler(19820, The arab invation of Egypt: Read Books, London 1982.

١٠. عمر الاسكندري، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني ص (١٣٥٥- ١٣٧).

١١. Lilian Postel (2013), Herodote et les annales royales Egyptiennes: Maison de l orient de la mediteraniee, Lyon 2013.

١٢. حامد سليمان (١٩٨٨): قصة فتح مصر من القبطية إلى الإسلام، المكتب العربي للمعارف، القاهرة ١٩٨٨.

١٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦: ص ١٥٧. طبعة مكتبة المرعشي النجفي، قم- إيران.

14. Pierre Garniron(1972), Leçon sur la philosophie de la religion : presses universitaire de France, paris 1972.

15. Jean-Paul Sartre(1943), Etre et Neant : Edition gallimard, Paris 1943.

16. Pollin Raymond(1977). Politique et philosophie chez Thomas Hobbes: Bibliotheque de philosophie, presses universitaires, paris 1977.

17. Pierre Garniron(1972), Leçon sur la philosophie de la religion: presses universitaire de France, paris 1972.

المصادر والمراجع:

أولا المصادر والمراجع العربية:

المصادر والهوامش

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. طبعة مكتبة المرعشي النجفي، قم، إيران.

٢. ابن ماجة، سنن ابن ماجة (١٩٩٨): تحقيق الدكتور بشار عواد، طبعة دار الجيل، بيروت ١٩٩٨.

٣. أحمد مختار عمر (١٩٨٨): علم الدلالة، عالم الكتب، ط٥، القاهرة ١٩٩٨.

٤. حامد سليمان (١٩٨٨): قصة فتح مصر من القبطية إلى الإسلام، المكتب العربي للمعارف، القاهرة ١٩٨٨.

٥. عمر الاسكندري (١٩٩٩): تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٩.

٦. محمد خليل (٢٠١٣): ٢٠٠ حكمة للإمام علي، دار المرتضى للطباعة والنشر، بيروت٢٠١٣.

٧. سوريون كيركجاردل (١٨١٣-١٨٨٥): فيلسوف دنماركي ينسب إليه الفلسفة الوجودية، صوت المعرفة ٢٠٠٠.

ثانيا المصادر والمراجع الأجنبية:

١. Alfred Butler(19820, The arab invation of Egypt: Read Books, London 1982.

٢. Daniel Dubuisson(1989), Dictionnaire des grands theme de l histoire des religions : Edhtion complex, Paris 1989

٣. Jean-Paul Sartre(1943), Etre et Neant : Edition gallimard, Paris 1943.

٤. John Sallis(1989), Deconstrucyion and philosophy The texte of Jacques Derrida: University of Chicago Press.1989.

٥. Lilian Postel (2013), Herodote et les annales royales Egyptiennes: Maison de l orient de la mediteraniee, Lyon 2013.

6. Pierre Garniron(1972), Leçon sur la philosophie de la religion: presses universitaire de France, paris 1972.

7. Pollin Raymond(1977). Politique et philosophie chez Thomas Hobbes: Bibliotheque de philosophie, presses universitaires, paris 1977.